٨

الحديدية

مرجريت تاتشر

نعم، تاتشر

ومن لا يصدق يذهب إلى ١٠ داوننج ستريت ليرى:

من يحكم هناك..!!

أو من كان يحكم هناك ؟

إنها تاتشر، بالقطع..

وليس ميجور غير تاتشر

وليس (الرجل الرمادى) كما يسمونه هناك غير حجم متضائل فى ظل (الست)

وليست سياسته التى ينفذها غير سياسة الست

إن تاتشـر التى أخرجت قسرا من زعامة حزب المحافظين فى دورة الاقتراع الأول رفضت أن تعود إلى منزلها..

ورفضت أن تستريح وتكتب مذكراتها

ورفضت الاعتراف والاعتزال والصمت

رفضت تاتشر هذا كله، وراحت تحتفظ بكرسى لها فى مجلس العموم، وتشيع عن نفسها أنها ستعين رئيسًا للمجموعة الأوروبية أو منصبًا كبيرًا فى الأمم المتحدة. أو..

ولا زالت الصحف البريطانية – والعربية – تتحدث عن المرأة الحديدية Madame de fer التى كانت تهيمن على الحزب الحاكم سواء عن سياستها العالمية أم المحلية.

تاتشر مازالت تحكم: فى الغرب والشرق

فى الغرب ما زالت تاتشـر قائمة فى كل الممارسات: كراهية الشرق، تأييد إسرائيل، محاباة المسئولين البريطانيين من اليهود، تأييد الحاخامات..

وفى الشرق، ما زالت الصحف العربية تشيد بتاتشر، المرأة الصلبة التى كانت، سياسة المرأة التى تستمر، الانبهار بما تردده وسائل الإعلام الغربية عنها..

وإذا كان هذا السـلوك فى الغرب مفهومًا بحكم التكوين التاريخى والموقف الاستعمارى، فإنه لا يكون مفهومًا عندنا فى الشرق العربى، إننا لا نفتح صحيفة أو مجلة – حتى اليوم – إلا ونجد

obeikandl.com

أخبار تاتشـــر و (التاتشـــرية)، بل إن إحدى الصحف خصصت صفحات فى العالم العربى عنها (الحياة)، وبعض المجلات وضعت صورتها الملونة على غلافها (أكتوبر) فضلا عن تعديد مآثرها أكثر من أحد عشر عامًا.

إن الإعجاب بتاتشر، والانبهار بأحداثها وابنها وزوجها ووزرائها، وبيتها فى ضاحية داليتش بجنوب العاصمة البريطانية مازال يملأ صحفنا وإعلامنا..

وإذا كان لتاتشـــر الوجه اللامع والسياســـة (التاتشرية) القائمة فى بلادها، فإن ما يهمنا نحن منها هنا: سياستها، موقفها من قضايانا العربية..

إن ما يهمنا منها هذا الوجه الســـافر بالعداء، العامر بالغضب والكراهية لنا، وهذه السياســـة التى وَرَّثتها لحزب المحافظين الذى ما يزال يحكم..

وهو ما يدفعنا لنقترب أكثر، ونسأل:

ما هى ملامح الوجه الحقيقى (للست) تاتشر؟

نقصد بالقطع، الوجه الغربى، القبيح..

وسوف نجيب عبر عدة مشاهد متوالية..

كلاكيت ١

فى البدء الاستعمار الإنجليزى..

وانعكس فى شـــكل (الهيمنة) على مقدرات العالم العربى فى القرن التاســـع عشر، واستخدم فى هذا كل أدوات العنف ســـواء الاحتلال أم الســـيطرة الاقتصادية أو الســـيطرة إلى البحر.. إلى غير ذلك.

وقـــد اتخذت هذه الهيمنة شـــكلا ظاهريًا زعم صاحبها حمل رســـالة الرجل الأبيض لتحضير الرجل المتخلف – غير الأبيض – خارج القارة الأوروبية..

وقد اســـتخدم الاستعمار الإنجليزى ترفعه وغطرســـته فى الهيمنة على البلاد العربية سياسيًا واقتصاديًا، وقد مثلت هذه السياسة أسماء عديدة، وحتى ندرك إلى أى مدى كان غلاة المستعمرين مصممـــين على النيل من العالم الثالث، ســـوف نتذكر معًا كيف جلـــس على مقعد رئيس الوزراء الإنجليزى قرابة سبعين وزيرًا منهم (ولنتأمل قليلاً الأسماء):

– وليام جلادســـتون ١٨٦٨ – ١٨٧٤، ١٨٨٠ – ١٨٨٥ وهو الذى شهد احتلال انجلترا لمصر والسودان..

– ونستون تشرشل ١٩٤٠ – ١٩٤٥، ١٩٥١ – ١٩٥٥.

وهو الذى شـــهد انتفاضة الشـــعب المصرى والســـودانى ضد الإنجليز، والمؤامرات التى انتهت بنكبـــة ١٩٤٨ ومـــا أعقبه من الاعتراف بهـــذا العضو الدخيل عالميًا، والمؤامـــرات ضد ثورة مصر

١٩٥٢ بحلـف بغداد، والعدوان الإسـرائيلى على الحدود المصريـة، والعدوان الثلاثى بعد تأميم قناة السويس.. إلخ.

– انتونى إيدن ١٩٥٥ – ١٩٥٧.

وكلنا نذكر دوره السيئ فى شن العدوان الثلاثى على مصر، ثم هاولد ماكيلان ودوجلاس هيوم وهارولد ويسـلون وكالاهان.. وهنا، قفزت (الست) تاتشر على كرسى رئيس وزراء إنجلترا قرابة اثنى عشر عامًا ١٩٧٩ – ١٩٩٠.

جاء الوجه الأخير، والقبيح، للاستعمار الإنجليزى القديم..

وحين جاءت، كانت أمريكا، قد أحكمت سـيطرتها – كاسـتعمار سياسى واقتصادى – على العالم، فوجدت نفسـها تقف فى نفس المعسـكر ضد العالم القديم كلـه، ضد العالم الثالث بكل ما فيه من حركات تحرر ونقاط توتر مستمرة..

جاءت تاتشر وليس أمامها غير أن تنافس أمريكا..

ولم يكـن التنافـس هو مجرد موقف مجرد، وإنما، هو اسـتعادة لحلم إنجليزى قديم من أيام الإمبراطورية التى (كانت) – فى يوم ما – لا تغرب عنها الشمس..

وتبلور الموقف العدائى فى التعالى على الشعوب والنيل منها..

وقد كان هذا الموقف يحتوى – أساسًـا – على الإحسـاس بالتفوق الغربى على شـعوب وأمم (متخلفة) – كما تراها تاتشر..

وكان هـذا الموقف يتخذ شـكلا (فائق القيمة التاريخية) للفعـل الإنجليزى الذى وضع نصب عينيه (المجد) القديم..

وهو مجد كان لا يخرج عن اثنين:

– إما العودة للمتخيل الإمبراطورى القديم

– وإما الجهر بالحلم فى شكل عداء ثابت

وجاءت تاتشـر لتعبر عن الحلم/ الحاضر بوجهها الجامد وقسـوتها المعلنة التى كان يمكن أن نجد أمثلة عديدة لها فى بقية دول الشمال، فإذا كانت تاتشر فى بريطانيا، فإن كيسنجر وهيج فى أمريكا..

الوجه الاستعمارى واحد

والمسميات تختلف

ونقترب، أكثر، لنرى، عبر فعل (الست) تاتشر رد الفعل على ما يحدث فى عالمنا العربى.. عبر عدة أقنعة..

لنقترب..

كان الموقف من إسرائيل أهم هذه الأقنعة..

وغنى عن الذكر أن هذا القناع الجديد نابع – أساسًا – من نظرة استعمارية قديمة أكدتها – الآن – الأحلام بالسيطرة وإعادة المجد التليد..

كان موقف تاتشر من إسرائيل يتحدد حول (أمن إسرائيل)، وفى فترات الصراع المصيرى بين العرب وإسرائيل كان الموقف يأخذ شكلاً منحازًا سافرًا ووقحًا، بدون تردد..

كان موقف تاتشر دائمًا يتلخص حول كيفية «الحفاظ على أمن دولة إسرائيل وتأمين استمرارها».

فحين كانت تاتشر تلتقى بشيمون بيريز – على سبيل المثال – لم تكن الصحف العربية عندنا، تنقل لنا، ما كان يحدث دائمًا بين رئيسة الوزراء الإنجليزية والزعيم الإسرائيلى..

كان يحدث الانحياز الصريح، وبشكل لم تكن تاتشر لتخفيه قط، ومن ذلك أنه حينما التقى زعيم حزب العمل الإسرائيلى برئيسة الوزراء الإنجليزية – تحديدًا فى ٢٢ يناير ١٩٨٦ – وجهت تاتشر إليه الدعوة فى مقر إقامتها «بداوننج ستريت» وكان معظم الحاضرين من وزرائها اليهود ما عدا وزير خارجيتها – آنذاك – سير يجفيرى هاو، وهم، سير كيث جوزيف نايجل لونسون، لوردينج، مالكوم ريفكند، ليون بريتين، وعلى مائدة العشاء تلا الحاخام جاكوفيست، صلاة المائدة، ولم تكتف تاتشر بتلك الصلاة، بل قالت «وطلبت من الأسقف اليهودى تلاوة صلاة أخرى يالها من ليلة تعبد» (المسلمون ٢١ ديسمبر ١٩٩٠).

وكان يكفى أن نتنبه، قليلاً إلى زيارات تاتشر إلى الشرق، لندرك أنها لم تكن لتهتم بدولة، فى العالم كله، بمثل ما اهتمت إسرائيل (بالست) التى لم تزر دولة فى المنطقة العربية إلا دولة إسرائيل، والإشادة بها كثيرًا..

لم تكن إسرائيل – عندها – إحدى دول المنطقة.. كانت دولة غربية.. وكانت سياسة (الست) تبعًا لذلك سياسة إسرائيلية..

وهو ما بدا أكثر وضوحًا فى سياستها الداخلية كذلك..

إن مراجعة الصحف الإنجليزية فى هذه الفترة التى حكمت فيها تاتشر فعليًا ترينا كيف أنها وقفت – صراحة وبدون مواربة – إلى جانب إسرائيل، ويتمثل هذا فى الاهتمام بالشخصيات اليهودية التى تتولى مناصب حيوية فى بريطانيا..

إن تاتشر أسندت وزارة التربية فى حكومة المحافظين الثانية (١٩٨٣) إلى الزعيم الخفى والأب الروحى لتاتشر نفسها – كيث جوزيف اليهودى – وهذا الرجل استطاع من خلالها

تكريس كل جهوده لنشر الثقافة اليهودية، ثم نظر كيث إلى وزارة الخارجية، فوجد فيها حوالى (١٥) دبلوماسيًّا مستعربًا ممن يجيدون شيئًا من اللغة العربية لتخصصهم فى دراسة ثقافتها وأدبها؛ مما حدا البعض منهم للتعاطف مع القضايا العربية كالذى حدث فى مواقف ديفيد ميللر، ووليليام ويلد جريف، اللذين كان نصيبهما فيما بعد وزارة الصحة، فما كان من كيث إلا أن رشح يهوديًّا آخر لمنصب وزير دولة للشئون الخارجية، فكان اليهودى الأسكتلندى مالكوم ريفكن وهو ابن لعمود المعبد اليهودى الأرثوذكسى اليجا؛ وهذا ما جعل من بين اهتمامات ريفكن المتعددة والمتصلة بجذوره الدينية اهتمامه بقضية مثل قضية الفلاشا، اليهود الأثيوبيين السود..

ولا نريد أن نقول الآن إن اليهود الفلاشا كانوا من أهم قضايا تاتشر؛ إذ ساعدت كثيرًا فى نقل عدد كبير منهم المرة الأولى، وهو ما سار على دربه حكومة تاتشر الأخيرة (حكومة ميجور) حين لعبت دورًا مشابهًا للدور الأول للمساهمة فى نقل الفلاشا لإسرائيل فى إبان الحرب الأهلية فى أثيوبيا تحت غطاء رعاية المفاوضات بين المعارضة الأثيوبية وبقايا نظام منجستو..

الأكثر من هذا أن تاتشر، حتى وهى تحيا – جسمانيًّا – فى بيتها فى جنوب لندن، تهتم بهذه القضية دون غيرها فتتوالى التصريحات بعد هجرة الفلاشا منها لتشير بكل فرح لما حدث، بل وحين التقت بوفد من قيادة اتحاد المنظمات اليهودية وتحدثت عن عداء السامية فى الاتحاد السوفيتى! (وعلامة التعجب هذه من وضعنا)، وهى تعتبر قانون الهجرة الذى صدر أخيرًا عن البرلمان السوفيتى بعد أن أقره «إنجازًا كبيرًا فى سير التحولات الديموقراطية»! (وعلامة التعجب من وضعنا..).

لم أنقل أن تاتشر مازالت فى كرسى الحكم..

لنأخذ مثالاً أخيرًا قبل أن نصل إلى قناع آخر.. نحن الآن فى نهاية حكم (الست) – ديسمبر ١٩٨٩ – فإذا بنا نراها تمنح أحد حاخامات اليهود لقب لورد فيما كانت التقاليد تفرض منح هذا اللقب لأحد أساقفة الكنيسة الإنجليزية هناك.. هو (JakobBorist).

وهذه هى الفترة التى كتب فى الصحف الإنجليزية عن تعاطف تاتشر مع الشخصيات اليهودية؛ مما دفعها إلى منحهم لمناصب عديدة على حساب مواطنيها من الإنجليز، وتذكر هذه الصحف أن المرأة الوحيدة التى استطاعت أن تجد لها مكانًا فى حكومة تاتشر كانت يهودية – أدونيا كورى – والتى شغلت منصب وزارة الصحة..

هل هذا معقول؟

كلاكيت ٣

وهنا نصل إلى موقف آخر..

الوجه الجديد للست فى أزمة الخليج

وهو موقف يقوم أساسًا على تأييد مركز الغرب الأول الآن (أمريكا). فى التحالف المعلن بين العديد من الدول الغربية (الاستعمارية قديمًا..) والولايات المتحدة لصنع السلام الأمريكى..

أو السلام على الطريقة الأمريكية..

وهذا القناع (التاتشرى) يقوم على منطق أكثر إقناعًا فى الظاهر بينما هو استعمارى عريق فى الواقع..

فى الظاهر يقوم على تأييد المركز – أمريكا – وتأييد المركز هنا يعنى تأييد الطرف التابع له فى «المنظومة» الغربية..

فإذا كان الموقف الأمريكى فى أزمة الخليج يقوم على أن أمريكا تكون هى الطرف المهيمن فى الأزمة، فإن بريطانيا (العظمى) – على اعتبار ما سيكون – تظل أهم لوازم هذا الطرف على الإطلاق بهدف استعادة بعض (ما كان)..

وهذا الموقف كان واضحًا قبل غزو العراق للكويت.. وبعدها.. فمنذ البداية بدت تاتشر أكثر دول (التحالف) مشاركة للأمريكيين وأكثر الدول تحيزًا لموقف العم سام بدون تردد أو مراجعة (كما فعل الجانب الفرنسى، على الأقل، كنوع من المناورة)، وهذا الموقف لم يتغير قط فيما بعد..

حتى بعد خروج تاتشر..

وفى فترة احتدام الأزمة، كان ميجور (رجل الست) يعبر بشكل أو بآخر عن أفكار بوش، أو يتحدث عنه من آن إلى آخر..

إنه توزيع الأدوار بالطريقة التاتشرية

وحين بدا يلوح فى الجو طيف التفاوض – لأكثر من مرة – كان ميجور متشددًا أكثر من بوش، ومرددًا: ضرورة الهجوم ومعاملة العراق بقسوة وبشدة..

كان ميجور أمريكيًا أكثر من الأمريكيين أنفسهم..

وهذا الموقف من ميجور، كان امتدادًا لموقف سابق لتاتشر، لم تتوقف تاتشر – من قبل – عن الهجوم العنيف على صدام حسين..

لم تتوان عن التحريض على النظام العراقى الصفيق..

لم تتراجع قيد أنملة عن عرض كل التسهيلات على الأمريكيين الذين يزمعون الهجوم على (طاغية) بغداد..

وبغض النظر عن موقف صدام حسين (ليس هنا مجال لتقييمه)، فقد بدا الموقف التاتشرى أكثر عدوانية من موقف الشيخ جار نفسه..

وربما يفسر ذلك أنه حين خرجت تاتشر من الحكم خرجت الصحف العراقية ووسائل الإعلام فى بغداد لتتحدث عن سقوط المرأة (الشمطاء)، وعن الموقف العراقى الذى أسهم فى ذلك..

ويمكن أن نضيف إلى ذلك، أن تاتشر لم تخرج من مجلس الوزراء – بالفعل – إلا بعد تهيئة المناخ لحليفتها – صانع القرار الإنجليزى – للوقوف ضد العرب..

لقد تركت خلفها فلسفة (تاتشرية) تواصل سياسة التشدد – على رغم أنه كان يلوح فى الأفق رايات التفاوض والمرونة – وكان يتم ذلك بالتصريحات العنيفة إلى درجة الصفاقة، أو – حتى بعد أن رحلت – بالأبناء على وزير الخارجية الإنجليزى دوجلاس هيرد والدفاع توم كينج فى التعديل الوزارى الأخير..

وقد كان ميجور نفسه، أكثر المرشحين الثلاثة – حينئذ – تأييدًا لتاتشر، وقربًا منها، فشخصيته التابعة يمكن أن تكون أكثر عوامل استقرار واستمرار هذه السياسة التى اتبعتها.

والمعروف، أن ميجو، كان قبل أن يقف فى الظل التاتشرى – كمسئول – من أكثر المقربين منها، الخاضعين لها خضوعًا خالصًا؛ إذ كان يتردد على مجالسها الخاصة، حتى إنه عين – من خلالها – ولأول مرة وزيرًا للخزانة فى عام ١٩٧٩، ويجمع المراقبون السياسيون فى لندن، على أن ميجور «يتمتع بصفات مشابهة لصفات تاتشر الاجتماعية والعائلية، كلاهما لا ينتمى إلى الطبقة الأرستقراطية»

تاتشر كانت – فى الأصل – ابنة بقال

وميجور – كان فى الأصل – ابن لاعب سيرك

تاتشر تتخرج فى كلية الصيدلة لتعمل فى وظيفة..

وميجور يعمل موظفًا

وتدرجا معًا حتى أصبحا أعضاء بمجلس العموم..

وقد كان أبلغ دليل على التقاء فكرهما، أن تاتشر كانت قد أعلنت أنها سوف تزور القوات البريطانية فى الخليج، وقد حقق ميجور رغبتها حين تولى هو المسئولية، فقام بالفعل بزيارة الجنود الإنجليز، هناك، فى أرض العرب..

وحتى بعد هزيمة العراق وعودتها إلى القرون الوسطى، فقد كان ظل (الست) مهيمنًا على تصريحات ميجور: إن ضرورة الإبقاء على العراق، هناك، فى خراب الهزيمة. وكان يتم ذلك – على حد تعبير هشام شرابى فى عدد الحياة ٢٩ يناير ١٩٩١ – فى لغة فوقية إملائية فرضية متعالية تتعمد الإثارة والإذلال. وهى لغة تأتى عفوية على اعتبار أنها لغة – القوى – المسيطر، الذى يتصرف عادة كأن العالم خلق لخدمته.

إن تاتشر، على رغم أنها تقيم الآن فى إحدى ضواحى لندن الجنوبية، فهى ما زالت هنا، فى قلب العاصمة البريطانية، وتحديدًا، فى كرسى رئيس الوزراء، صانع القرار الإنجليزى (جلادستون. وتشرشل.. وإيدن..).

تاتشر هنا، نعم.. تحصل على الأوسمة وتبيع مذكراتها وتدلى بأفكارها، وتنتظر.

المراجع

يلاحظ أن المراجع الكثيرة عن تاتشر ترسم صورة صحيحة لهذه المرأة الحديدية كأن توصف بالمرأة الحديدية وهذا كان له بواعث بالفعل فى الشخصية، وهنا نلاحظ أن هذه الصفة كانت تلازمها لأنها كانت قوية شديدة وتتخذ قرارات كبيرة وتتحمل تبعاتها وتواجه الظروف بقوة تحمل ربما تفوق فيها الكثير من الرجال حيث إنه فى منتصف شهر مارس عام ١٩٨٣م قبل ٢٢عاماً كانت رئيسة وزراء بريطانيا مارجريت تاتشر قد وصلت إلى مقر إقامتها فى مدينة برايتون الساحلية جنوب انجلترا استعدادا لمؤتمر دولى فى اليوم التالى. وما أن استقرت فى الفندق المعد لإقامتها إلا وحدث انفجار ضخم فى نفس الفندق قامت به جماعة من الإرهابيين. فما كان من تاتشر إلا أن انتقلت إلى جناح آخر فى الفندق لم تصله آثار الانفجار تحمل أوراقها ومذكراتها وأكملت فيه بقية المساء لتقف فى صباح اليوم التالى وكما هو محدد سابقاً فى تمام الساعة التاسعة أمام جموع الحاضرين فى المكان المعد للمؤتمر. وقفت وهى تقول:

– ها آنذا أقف أمامكم فى نفس اليوم وفى نفس الساعة المحددة للمؤتمر لأقول للإرهابيين إنهم لن يستطيعوا أن يمنعونا من متابعة مسيرتنا نحو البناء والتشييد!!:

انظر على سبيل المثال :

http://www.alshamsi.net/man/mel/margrait_tatsher.html

وتعيننا الكثير من المراجع الرقمية هنا من أمثال :

- http.//www.alrai.com/page
- http://www.stop55.com
- http://www.iraqcp org.htm
- http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?
- http://www almotamar.net/news/57913.htm